

## التواضع في الخدمة<sup>1</sup>

المفروض في الخادم أن يتصرف بصفات روحية. ولعل مقدمتها التواضع. ومن أهمية هذه الصفة أن السيد المسيح قال للاميده: "تَعَلَّمُوا مِثِي لَأَنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعٌ الْقُلْبٌ" (مت 11: 29).

كان يمكن أن يركز على فضائل كثيرة تتمثل في شخصه القدس. ولكنه ركز على التواضع والوداعة. ذلك لأن الذي يخدم، كثيراً ما يحارب بالكبراء أو العظمة، إذ يجد أنه قد انتقل من صفوف المخدومين إلى مصاف الخدام. وأنه أصبح من الأشخاص المهمين في الكنيسة، ومن الأشخاص الذين يؤخذ رأيهم في سيامة كاهن جديد للكنيسة. بل ربما يكون هو أحد المرشحين للكهنوت...

لذلك نريد أن نقدم بعض ملاحظات في هذا الموضوع.

1- لا يجوز أن ينسى الخادم أنه خادم!

إنه خادم

حسن هذا اللقب، إنه خادم، وليس سيداً!

ولم نعطه لقب كارز، أو معلم، أو مدرس...

وظيفته أن يخدم، لا أن يسيطر، أو يتكبر. فالكبراء ليست من صفات الخدم... والعجيب أن السيد المسيح نفسه لقب نفسه بلقب خادم. وعلى الرغم من أنه "مَلِكُ الْمُلُوكِ وَرَبُّ الْأَرْبَابِ" (رؤ 19: 16)، إلا أنه انحنى وغسل أرجل تلاميذه لكي يعطيهم مثلاً (يو 13: 5، 15). بل قال أيضاً:

"ابْنُ الْإِنْسَانِ لَمْ يَأْتِ لِيُخْدِمَ بَلْ لِيُخْدَمَ وَلِيُبَذِّلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ" (مت 20: 28).

ولقب خادم قد تلقب به الملائكة أيضاً. فقيل عنهم في الرسالة إلى العبرانيين: "الَّذِينَ جَمِيعُهُمْ أَرْواحًا حَارِمَةً مُرْسَلَةً لِلْخِدْمَةِ لِأَجْلِ الْعَتَدِينَ أَنْ يَرِثُوا الْخَلَاصَ" (عب 1: 14). وقيل في المزمور: "الصَّانِعُ مَلَائِكَتُهُ رِيَاحًا وَخُدَامَهُ نَارًا مُلْتَهِبَةً" (مز 104: 4).

<sup>1</sup> مقالة لقداسة البابا شنوده الثالث: التواضع في الخدمة بمجلة الكرازة 1991/9/20

وكما لقب الملائكة بأنهم خدام، كذلك الرسل أيضاً:

يقول القديس بولس الرسول عن نفسه وعن زميله أبلوس "مَنْ هُوَ بُولُسُ وَمَنْ هُوَ أَبْلُوسُ؟ بَلْ خَادِمٌ آمَنْتُمْ بِوَاسْطَتِهِمَا" (كورنيليوس 3: 5) ويقول عن مساعدته تيخيكس: "يُعْرِفُكُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ تَيْخِيْكُشُ الْأَخْ حَبِيبُ وَالْخَادِمُ الْأَمِينُ فِي الرَّبِّ" (ألفا 6: 21). ويقول عن أفراس: "الَّذِي هُوَ خَادِمٌ أَمِينٌ لِلْمَسِيحِ لِأَجْلِكُمْ" (كورنيليوس 1: 7). وقال عن القديس مرقس الرسول: "إِنَّهُ نَافِعٌ لِلْخِدْمَةِ" (تى 4: 11).

وقال بصفة عامة: "كِفَيَتْنَا مِنَ اللَّهِ، الَّذِي جَعَلَنَا كُفَّارًا لَأَنَّنَا كُفَّارٌ خُدَّامٌ عَهْدٌ جَدِيدٌ" (كورنيليوس 3: 5، 6). وقال إن "الله، الذي... أَعْطَانَا خِدْمَةَ الْمُصَالَحةِ... نَطَّلْبُ عَنِ الْمَسِيحِ: تَصَالَحُوا مَعَ اللَّهِ" (كورنيليوس 18، 20).. والآباء الرسل عند اختيار الشمامسة السبعة، قالوا: "أَمَّا تَحْنُّ فَنُواظِبُ عَلَى الصَّلَاةِ وَخِدْمَةِ الْكَلِمَةِ" (أعنة 6: 4). آباؤنا الرسل كانت لهم خدمة الكلمة، وخدمة المصالحة والأباء الكهنة عموماً هم خدام المذبح. وكلمة شamas معناها خادم.

والكاهن الذي يستلم الذبيحة، يسمى في الطقس، الكاهن الخديم. حتى الأرملاة التي كانت تخدم في الكنيسة، اشترط فيها الرسول أن تكون "مَشْهُودًا لَهَا فِي أَعْمَالِ صَالِحَةٍ... اصَافَتِ الْغَرَبَاءَ، غَسَّلَتِ ارْجُلَ الْقَدِيسِينَ" (تى 5: 10). والعناية بالفقراء نسميتها الخدمة الاجتماعية.

وحتى اجتماع مدرسي التربية الكنسية، نسميه اجتماع الخدام.

فما دمت يا أخي خادماً، اسلك في اتضاع خادم، ولا يرتفع قلبك من الداخل. افهم الكلمة في جوهر معناها، ولا تجعلها تفقد حقيقتها ومدلولها... كان القديس أوغسطينوس يصلي من أجل رعيته قائلاً: "أطلب إليك يا رب من أجل سادتي عبيدك...".

**إن كنت خادماً، فيجب أن تتصرف بالطاعة**

طاعة الله، وطاعة لرؤسائك في الخدمة ومديريك.

بعض خدام التربية يتحدون الأب الكاهن، فلا يحترمونه ولا يطيعونه، ومع ذلك يقولون إنهم خدام!! ونفس الوضع نقوله عن الكاهن الذي لا يطيع أسقفه!! ونقوله عن أعضاء مجلس الكنيسة الذين ينفردون بالعمل دون مشورة رئاستهم الكنسية!!

لا تظن أنك أحد قادة العمل الرعوي أو التعليمي في الكنيسة.

بل تذكر باستمرار أنك خادم. واسلك كما يليق بخادم... واحذر أن تقعد تواضعك. لأنه كما يقول الكتاب: "فَبَلَ الْكَسْرِ الْكَبِيرِيَاءُ وَقَبْلَ السُّقُوطِ تَشَامُخُ الرُّوحِ" (أم 16: 18).

2- من الأمور الأخرى التي تجلب التواضع في الخدمة: التلمذة.

التلمذة:

يظن بعض الخدام، أنهم لما أصبحوا خداماً، انتهى بالنسبة إليهم عصر التلمذة. وهذا فهم خطأ.

إنما لكي تحافظ بتواضعك، احتفظ باستمرار تلمذتك.

كل المسيحيين في العصر الرسولي كانوا يدعون تلاميذاً. والسيد الرب لما أرسل الأحد عشر للكرازة، قال لهم: "اذهبوا وَتَلَمِّذُوا جَمِيعَ الْأُمَمِ" (مت 28: 19). وفي انتشار الكرازة قيل: "وَكَانَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ تَثْمُو وَعَدُّ التَّلَمِيذِ يَتَكَاثِرُ جِدًا" (أع 6: 7).

إذن استمر تلميذاً للرب وتلميذاً للكنيسة، ولا يكبر قلبك.

وإن شعرت أنك صرت معلماً، وأصبحت فوق مستوى التلمذة، أعرف جيداً أنك بدأت تسقط في الكبرياء.

أتذكر إننا حينما كنا خداماً في مدارس الأحد في كنيسة الأنبا أنطونيوس، منذ حوالي 45 سنة، كان كل خادم يجلس كمستمع أو كتلميذ في أربعة اجتماعات كل أسبوع: في اجتماع الأسرة، واجتماع الخدام، واجتماع الشبان، وفي الفصل الكبير الذي كان يبدأ في السابعة والربع مساء، بعد انتهاء التدريس في باقي الفصول. وباستمرار كان الخدام يتعلمون من غيرهم، فيستمرون في تواضعهم.

قل لنفسك باستمرار ما زلت أتعلم ومحاج أن أعرف.

وإن عشت في حياة التلمذة، ستتخلص من مشاكل كثيرة:

ستتخلص أولاً من روح الجدل وكثرة المناقشات (المقاوحة). وتكون مستعداً أن تتقبل الرأي الآخر بروح طيبة. لأن الذي يدخل فيهم روح الجدل، يسلّمهم إلى روح العناد وتصلب الرأي، ويظلون أنهم يفهمون أكثر من الكبار. بل قد يظلون أنهم هم الكبار.

احتفظ إذن بطفولتك الروحية، حسب قول رب:

"إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا مِثْلَ الْأَوْلَادِ فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ" (مت 18: 3).

وما أكثر الأمثلة لقديسين عاشوا تلاميذ:

يشوع ظل تلميذاً لموسى طول حياته، إلى أن رقد موسى في الرب. وأليشع ظل تلميذاً لإيليا إلى أن صعد إلى السماء، فودعه بعبارة: "يَا أَبِي يَا أَبِي، مَرْكَبَةُ إِسْرَائِيلَ وَفُرْسَانَهَا" (مل 2: 12). والقديس أنتايوس الرسولي، مع أنه كان بابا الإسكندرية، احتفظ بتلميذه للقديس أنطونيوس الكبير. ولما كتب سيرته قال: "وَأَنَا نَفْسِي صَبَبْتُ مَاءَ عَلَى يَدِيهِ" أي كان يخدمه.

كان التلميذ قديماً، يجلسون عند أقدام معلميهم.

فلا يجلسون إلى جوارهم ولا أمامهم. بل كان المعلم يجلس على كرسي، وكل تلاميذه جلوس على الأرض عند قدميه. وعن هذا قال القديس بولس الرسول: "وُلِدْتُ فِي طَرْسُوسَ كِيلِيكِيَّةَ وَلَكِنْ رَبِّيَتُ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ مُؤَدِّبًا عَنْدَ رِجْلِيِّ غَمَالِيَّةِ" (أع 22: 3). هذا هو اتضاع التلميذ أمام معلمه. ويعتبر أيضاً أنه ليس فقط يعلمه، بل يربيه أيضاً ويؤدبه.

ما أصعب أن خادماً يقرأ كتاباً أو كتابين، فيتكبر على معلميه.

ويتكبر أيضاً على آباء الكهنة، ويفرض مشيئته على أب اعترافه. فإما أن يوافقه الأب على رأيه، أو يعصاه!! وهكذا يصير حكيمًا في عيني نفسه، الأمر الذي نهاها عنه الكتاب فقال: "لَا تَكُنْ حَكِيمًا فِي عَيْنَيْ نَفْسِكَ"، "وَعَلَى فَهْمِكَ لَا تَعْنِمِ" (أم 3: 7، 5).. عش إذن تلميذاً متواضعاً.

والتمس المعرفة من كل مصادرها:

تتلمذ على أب اعترافك، وعلى آباء الكنيسة، وعلى المجتمعات الروحية، وتتلمذ على الطبيعة، على زنابق الحقل وطيور السماء. تتلمذ على الكتب الموثوق بها... ولا تظن - مهما كبرت - أنك قد ارتفعت عن مستوى التعليم...

إن تاريخ الكنيسة يسجل لنا قصصاً عجيبة عن اتضاع القديسين في التلمذة.



تصوروا واحداً من الآباء الكبار مثل القديس موسى الأسود، يطلب كلمة منفعة من الصبي زكريا. فلما يستحي الفتى منه قائلاً: "أنت عمود البرية، وتطلب مني كلمة؟!..." يجيبه القديس "صدقني يا ابني، لقد عرفت من الروح الذي عليك، أن عندك كلمة أنا محتاج أن أعرفها"!..

والقديس مكاريوس الكبير، أخذ كلمة منفعة من راعي بقر..

وكان الآباء يتلمسون كلمة منفعة، بينما لهم سيرة ملائكية يشتهي الكثيرون أن يتعلموا منها.

### التواضع في التعليم

صدقوني أكثر ما يتبع كنيستنا حالياً هو عدم التواضع في التعليم.

كل خادم يأتي له فكر جديد، من تأملاته أو من قراءاته، يحاول أن يجعله عقيدة، ويدرسه للناس... وهناك نوع من الكتاب، يروق لهم إلغاء المفهوم السائد ليقدموا بدلاً منه مفهوماً جديداً. وكأن الواحد قد اكتشف ما لا تعرفه الكنيسة كلها والناس جميعاً! وكأنه يعلم ما لا يعلمون.

المشكلة هي تقديم المفاهيم الشخصية، وليس تعليم الكنيسة وعقيدتها.

ومحاولة للجدل وللإثبات، وإقناع الناس بخطأ المفهوم السائد... والبعض قد ينقد طقس الكنيسة. والبعض يغير ألفاظ القدس. والبعض يقدم ترجمات غير مألوفة لكتاب المقدس. والبعض يصرح بزيجات بعض قوانين الكنيسة... والبعض يصل إلى بقداسات غير مألوفة في كنيستنا.

وكل واحد من هؤلاء يعتبر نفسه مصدراً للتعليم.

وكأنه جبهة مستقلة في تعليمه، أو جزيرة قائمة بمفردها في المحيط. وإن تدخلت الكنيسة لإصلاح الوضع، يقيم الدنيا ويقف ضد الكنيسة. وينادي بأن تعليمه هو السليم، والكل مخطئ!

وقد تجد لكل فرع من التربية الكنسية منهجاً خاصاً.

أمين الفرع لا يعجبه المنهج العام، فيعدل فيه ويبدل، أو يضع منهجاً خاصاً يرى أنه الأفضل والأصوب. وإن شاء الله سنضع منهجاً موحداً، ونأخذ فيه لرأي الآباء وقادرة الخدمة. نرجو بعد وضعه أن يتواضع الخدام ويعملوا به... ولا يقف لنا أحد ليقول: من حقي أن أعارض... من حقي أن أرفض! من حقي أن أسير حسب فكري! وإلا فأين هي الديمقراطية في الكنيسة!! ولا يقول له أحد: أين هو التواضع؟!



الكنيسة الأولى تميزت بالفكر الواحد.

لأنها كانت كرت متصعة، تخضع لفكرة قادتها.

أما البروتستانتية التي نادت بالحرية في التفسير والتعليم، فقد تكونت فيها مذاهب متعددة زادت على المائة، وتشتت الناس في عقائد مختلفة ... أما الكنيسة المحافظة التقليدية، فإنها تحفظ الإيمان، ولا تسمح بالمفاهيم الفردية التي تحول إلى عقائد، بل تتصح أصحابها بالاتضاع.

**الخادم المتواضع أيضًا لا يستعرض معلوماته!!**

إنما يقدم التعليم في أسلوب روحي هادئ. لا يحاول أن يفسر المعلومات، ولا أن يمسك ببعض الكلمات، ويوضع أمامها النص العربي، أو اليوناني، أو بعض الترجمات الإنجليزية. وقد لا يكون الشعب على علم بشيء من كل هذا. وقد لا يكون كل هذا لازماً لإثبات الفبركة التي يقدمها. وقد لا تكون المراجع التي يستخدمها سليمة. وقد يتبع في ذلك بعض المذاهب التي تسير بالمنهج العقلي لا بالمنهج الروحي ...

**الخادم المتواضع ينزل إلى مستوى المخدومين، ولا يبهرهم بمعلومات فوق مستواهم لا تفيدهم بشيء.**

إنه لا يفكر في ذاته، والمستوى الذي يريد أن يأخذ الناس عنه إنما يشغل بفائدة الناس الروحية، بينما تختفي ذاته تماماً.

لذلك هو يحضر درسه أو عنته أو محاضرته. ولا مانع عنده أن تكون ورقة تحضيره ظاهرة. فهو لا يضيع فائدة السامعين، من أجل أن يأخذوا عنه فكرة أنه يتكلم من الذاكرة ...

**الخادم المتواضع يهتم بتحضير درسه.**

ولا يعتمد على معلوماته السابقة ولا على ذاكرته، كما يفعل بعض الخدام الكبار، ولا يحضرون ما يقولون، فتبدو كلماتهم أحياناً ضعيفة، لأنهم لم يتواضعوا، بل وتقوا بأنفسهم وبقدراتهم أزيد مما يجب.

**الخادم المتواضع يحترم عقليات السامعين مهما صغروا.**

ويبذل كل جهده لكي يقدم لهم كلاماً دسمًا يشبعهم.

**التواضع والذات**

الخادم المتواضع ينكر ذاته. يختفي لكي يظهر الرب، كما قال القديس المعمدان: "يَتَبَغِي أَنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ وَأَنِّي أَنَا أَنْفَصُ" (يو3: 30). أما غير المتواضع، فيتخذ الخدمة ليبني بها ذاته، بطريقة خاطئة. فهو يفكر كيف يرتفق في الخدمة، وليس كيف يرتفق بالخدمة. ويفكر في مستوى المجالات التي يتكلم فيها. وربما يسعى إلى المناصب. وقد يصطدم بقيادات الكنيسة. ويتعود كيف يأمر وينتقد...

### وربما يفتخر بخدمته، ومدتها ومستواها

يقول أنا لي 20 سنة في الخدمة. أنا خرجت أجائلاً... ويكبر في عيني نفسه. ويريد أن يطاع، لا أن يطيع. ويصطدم بالأنظمة الموضوعة. ويحكي قصصاً عن ماضيه ويدخله روح العظمة.

### الخادم المتواضع يكون كالنسيم الهادئ

فى دخوله وخروجه لا يشعر به أحد، يكون رقيقاً دمثاً وديعاً لطيفاً في معاملاته. لا يخدش شعور أحد، لا يجرح إنساناً. لا يهتم بتولي مناصب في الخدمة، يطيع في كل ما يوكل إليه: "لَا يُخَاصِّمُ وَلَا يَصِحُّ وَلَا يَسْمَعُ أَحَدٌ فِي الشَّوَّارِعِ صَوْتَهُ" (مت12: 19). و"لَا يَرْتَئِي فَوْقَ مَا يَتَبَغِي" (رو12: 3).

احذر أن تفقد الخدمة تواضعك.

لأن كثرين كانوا متواضعين قبل الخدمة ثم تغيروا. أما أنت فلا تكن كذلك. "لَا تَهُوَّ مَادَّا يَتَنَقَّعُ إِلَيْهَا لَوْ رَبِّ الْعَالَمَ كُلُّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟!" (مت16: 26). احترس من حب السلطة والسيطرة. واحترس من أن يقنعك البعض باسم الغيرة المقدسة أن تحول إلى سيف من نار. وإنما قل من أنا؟!، "مَنْ أَقَامَنِي عَلَيْكُمَا قَاضِيًا" (لو12: 14).. ولتكن ذاتك آخر الكل. ولا حظ نفسك.

### لئلا إذا كبرت في الخدمة، يكبر قلبك.

وكما قال القديس الأنبا أنطونيوس هناك من يتحمل الكرامة، ولا يستطيع أن يتحمل الإهانة. لأن احتمال الكرامة أصعب من احتمال الإهانة.

وفي اتضاع الخدمة، تدرب على الخدمات التي في الخفاء  
التي لا يعرفها أحد، ولا يمدحك عليها أحد.

وليكن الله معك، يمنحك روح الاتضاع.